مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 962 - 975 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

سيميائية الحواسّ في رواية" أصابع لوليتا " لواسيني الأعرج

The Semiotics of the Senses in (Lolita's Fingers) Novel bay Wassini Laaredj

* محمد الصديق بغورة

Mohamed seddik beghoura

جامعة محمد بوضياف- المسيلة (الجزائر)

University of mohamed boudiaf M'sila (Algeria)
Mohamedseddik.beghoura@univ-msila.dz

تاريخ الإرسال:05-11-2020	تاريخ القبول: 2021/05/24	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

يتناول هذا المقال دراسة لرواية أصابع لوليتا لمؤلفها (واسيني الأعرج) وتبحث في توظيف الحواس والتركيز خاصة على حاسة الشم التي أصبحت عند شخوص الرواية وسيلة اتصال بالعالم وأسلوب إدراك لكثير من الأفكار لينجز الكاتب في الأخير مقولة تندد بالانحراف السياسي ويمكن تلخيصها في انهيار القيم الإنسانية و الإنسان الذي قد صار أشبه بكائنات متوحشة.

الكلمات المفتاح : واسيني- لوليتا- حواس- شم- مسخ

Abstract :

This article examines the use of the senses and of concentration in the novel (Lolita's fingers) Created by its author (Waceni Laredj) and, in particular on the sense of smell, which for the characters of the novel has become a means of communication with the world and a method of perceiving many ideas that have become like wild creatures.

Key words : **:** Wassini, Lolita, senses, smell, metamorphose

مقدمة:

كثيرا ما أثيرت قضية الكتابة المتكرّرة في أعمال الأديب الواحد، وهو أمر يحاول الكتاب دائما تجاوزه والإفلات من تهمته.

* محمد الصديق بغورة Mohamedseddik.beghoura@univ-msila.dz

ويمكن لمتتبّع مسيرة الروائي واسيني الأعرج أن يلاحظ محاولة انتقاله في كلّ مرة إلى تناول فنيّ فكريّ جديد، ومن الواضح أنّ ذلك يتطلب تجددا في إمكانيات الإنجاز السرديّ لدى أيّ روائي يبحث في كلّ مرة عن شيء جديد، وهذا ما يمكن أن يسِم أيّ إنجاز سرديّ بالحيوية والتجدد والحضور، وقد يقرب هذا البحث الدائم عما هو إضافة في كلّ عمل سرديّ جديد من مفهوم التجريب، ومن علاماته هذا التعدد الغوي الذي يلاحظ في الرواية، وهو الظاهرة التي من الطبيعي أن تتحقق لدى عدد من الروائيين .

ورواية واسيني الأعرج "أصابع لوليتا" [1] تشدّ القارئ بدءا من عنوانها، وبعد البحث في سرّ العنوان تشتد الرغبة في معرفة أكثر من شيء: لوليتا الأولى ومؤلفها وما يتّصل بها، لنجد أنفسنا أمام إنجاز روائي عند واسيني تجتمع فيه كثير من العناصر التاريخية والسيرية والسياسية والبوليسية، ومن هنا يمكن للدارس أن ينظر إلى الرواية عبر عدة مناظير، بل إنّ طبيعة تشكيل هذه الرواية قد تفرض على الدراسة أن تكون "ورشية"، كما تؤكد بأنّ التنظير الذي حاول تحديد خصائص معينة للرواية يحرّره عن بقيّة الفنون والمعارف غير ممكن.

إن في هذه الرواية ظاهرة دقيقة تشد انتباه الدراسة إليها: هي حضور الحواسّ بشكل مكثف وفي مقدمتها الشمّ، فما أهمية توظيف هذه الحواس عامة وهذه الحاسة بالذات؟

1- أصابع لوليتا رواية واسيني الأعرج:

العمل السرديّ عمل مركَّب غير منفصل عن الكتابات السابقة، وكلّ عمل روائيّ هو مزيج من المحكيّ والنشيد، كما يرى ذلك "فريديريك شليغل" "Friedrich Schlegel" [2]. وبالرجوع إلى "أصابع لوليتا" نتذكَّر عددا من الروايات التي تصدّرت النسوة عناوينها وهيمنت على أحداثها مثل: "نانا" لإيميل زولا Emile Zola [3] ، و"مادام بوفاري" لفلوبير Flaubert الذي قدم لنا صورة عن الحياة النورماندية وغاص في تفاصيل شخصيات بسيطة مبتذلة [4] ، و"الأم" لماكسيم غوركي ... وبكثير من الأعمال الروائية التي تؤدّي فيها المرأة دورا جوهريّا، غير أنّ رواية "لوليتا" للروسي المتأمرك فلاديمير نابوكوف هي التي كانت رواية "أصابع لوليتا" أكثر اقترابا منها، ليس للتقاطع العنويّ، بل لما بين الروايتين من تشابه في الأجواء الإنسانية. ومن الطبيعيّ أن من هذه الروايات كانت تُقرأ بشيء من التحفّظ، كونها أعمالا حسّيّة التناول، مناقضة للمبدإ الخلقيّ العامّ الذي يفترض أن يتحقّق في العمل الأدبيّ، غير أنّ

المقال لن يركّز على هذا الجانب، بل سيبحث في ما يشدّ الانتباه فيها بدءا من العنوان؛ وهو حضور الحواسّ بشكل مكثّف، خاصّة حاسّة الشمّ التي يتكرّر ذكرها في عدد كبير من صفحات الرواية، وهو الأمر الذي حوّلها إلى ظاهرة جديرة بعناية البحث، لهذا رأيت أن أبحث في دلالة الحواسّ عامّة مركّزا على حاسة الشمّ التي تبدو وسيلة في النظر إلى الأشياء وحدسها وفهمها، ومن هنا كان عليّ أن أدقق النظر في المواقف التي تبدو بها الحواسّ ذات صلة بفكر الرواية ومقولاتها ورؤاها، انطلاقا من ملفوظاتها.

2- " أصابع لوليتا " رواية حواس:

العنونة في "أصابع لوليتا" تأخذ أكثر من بعد: فهي ترجعنا أوّلا إلى أحد أبرز الأعمال الروائيّة التي تناولت الجانب النفسيّ عامّة والانحراف الملتهم للأطفال جنسيّا خاصة، وقد أعطت الحاسّة بمفهومها الجنسيّ العناية الأولى من بداية العمل إلى نهايته، وسردت اعترافات ويوميّات رجل أرمل اسمه همبرت همبرت قبل وفاته عام اثنين وخمسين وتسعمئة وألف في السجن قبيل المحاكمة.([5])

وإذا كان العنوان يسمّي الشيء للمرة الأولى فيغرسه في الوجود والكلام ويظهره، ([6]) فإنّ عنوان "أصابع لوليتا" يحيلنا على أهمّية الحاسّة في إدراك الأمور، ويدفعنا إلى التساؤل حول مبرّر ترك العقل في البحث عن الحقيقة واعتماد الحواسّ في تأمّل تفاصيل مسيرة الجزائر التاريخية لعلّها توصلنا إلى نتيجة.

لقد كان من الطبيعيّ أن يلجأ واسيني إلى عمل عالميّ كهذا؛ ذلك أن كلّ رغبة في تحقيق إضافة فنّيّة أو فكريّة تتطلّب شيئا من المغامرة ومحاورة كمّ كبير من الثقافات، كما نجد ذلك في أعمال روائية لرشيد بوجدرة — مثلا- الذي تفاعل مع منجزات سرديّة عالمية كثيرة مضيفا إليها بانسجام جوانب من الثقافة الشفوية الجزائرية، فلا غرابة بعد ذلك أن تتميز تجربته بالثراء والعالمية خاصة في كل من التطليق1969 وضربة شمس1972.([7]) ومع ذلك فقد أثير اتّهام الرواية الجزائرية التي نظر إليها على أساس أنّ كاتبها – وهو يستحضر التجارب العالميّة في تقديم عمله- يكون ذا انشطار بنيويّ dédoublement structurel في أغلب الأعمال، كما يكون مغتربا وصاحب وجهة نظر ذاتية بعيدة عن كلّ عقلانيّة، وقد يكون ذلك ناجما عن صدمة نفسيّة ما. ([8]) ، وبالرغم من كلّ تأثر من أي كاتب بأعمال سابقة أو إيديولوجيات، إلاّ أنّ الروائيين

يقومون عموما بعرض الإيديولوجيات وصراعاتها ليقولوا أشياء مخالفة،([9]) وبذلك يطلب أن تكون رؤية السارد أكبر ممّا هو وارد في الإيديولوجيا وأسمى، بعيدا عن تكرار المتناول المعهود.

إنّ ما هو لافت أكثر في هذه الرواية هو اللاعقلانية التي أثارها البحث وهي اعتماد الكاتب الحواسّ طريقا إلى المعرفة والإدراك لدى شخصياته، بدل التفكير والتحليل، بالرغم من استحالة الفصل بين الحواسّ والعقل ؛ لأنها أدواته في وعي الأشياء وتبيّنها. ووجود الشم والعطر يدفعنا إلى التساؤل عن وجود علاقة بين الشم والجريمة، وهذا التساؤل يذهب بنا إلى رواية ألمانية بعنوان "العطر" أشادت بها أصابع لوليتا، وما يجمع بينهما هو أن عطر باتريك زوسكيند Patrick Suskind كانت قصة جريمة ومن خلال شخصيتها الأولى "غروني" الذي كان يؤكد ذاته طيلة الرواية بواسطة الشم([10]) وفي أصابع لوليتا ارتبط الشمّ بالجريمة السياسيّة.

3- لوليتا والهاجس الحسّيّ:

قد يكفي ذكر اسم "لوليتا" في عنوان أي رواية لتكون رواية حواسّ؛ إذ إنّ الرواية الأصل "لوليتا"وصف نجاحها بأنه"نجاح فضيحة" بعد أن بيع منها خمسة عشر مليون نسخة، وهي للروسي الأصل الأميريكي الجنسية"فلاديمير نابوكوف"vladimir Nabocov (1899- 1977)كتبها بالأنجليزية بعد أن اقام في الولايات المتحدة منذ 1940 ، فعُدّت إحدى أهم الروايات الأميريكية في القرن العشرين.([11])

وممّا يؤكد أهمية المحسوس والحواسّ في "أصابع لوليتا"هذا النص الموازي: "لا شيء أجمل من جسد عارٍ..." ([12]) وهو نصّ تجاري في الأصل، صاحبه هو "إيف سان لورون" Ives Saint Laurent المعروف في عالم العطر خاصّة، إلا أنّ الكاتب أصرّ على الإفلات من هذه الدلالة البسيطة؛ ليغوص في أعماق الغايات الأدبية فيقول: الكتابة هي الحاسة التي توقظ أشياءنا الدفينة الرائعة، وربما تذكرنا أيضا بوحشيتنا المقيتة وبأدفإ نقطة فينا أيضا ...([13]) وقد تكون الوحشيّة التي تشير إليها الرواية هي الأحداث السياسيّة الدامية التي ملأت الإنسان الجزائري -في التسعينيات خاصة- بكثير من الخوف والانطواء.

وتتعدّد الحواس في الرواية وتحضر في مواقف كثيرة، لكنّ ما يشد الانتباه فيها هو تلك التي تروي عنها الشخصية الأساس، شخصية "يونس مارينا". فمسار الرواية يتطوّر نحو الحسّيّة والجسديّة أوّلا في العنوان لتبدأ الحواسّ بعد ذلك في تحديد التوجّه العامّ: فالأصابع لفظ مثير

للحسّ، إلّا أنها يمكن أن توحي كذلك بجوانب معنويّة فنّيّة روحية، كما يمكن أن تدلّ على الجوانب الجسديّة الحسّيّة؛ فهي تعزف على بيانو أو قيثار أو غيرهما، لكنّها تداعب الجسد أيضا، وتلهب الرغبة الحسّية، وقد توحي بالشبقيّة، إلّا أن وجودها جنبا إلى جنب مع "لوليتا" يذهب بالمتلقّي مباشرة إلى الجانب الحسي، وندرك هذا بعد أن نقرأ لوليتا الأصل.

في أصابع لوليتا تتحوّل الحواسّ إلى أداة تعبيريّة، ويمكن القول بأنّها لغة ثانية داخل اللغة؛ كما نجد ذلك في الفرح بالكتاب انطلاقا من رائحته، وليس من ألوانه أو محتواه فالشخصية تشمّه وتعبر عن سعادتها برائحته ([14])

وكثيرا ما يتمّ التركيز على حاسّة دون غيرها: إنّها حاسة الشمّ التي من خلالها يحاول الكاتب التعرّف على امرأة تسكن الذاكرة، وبعد معرفة سرّ تسمية الشابة "لوليتا" يتّضح أنّ الرواية تحركها عقدة ([15]) متعدّدة الأبعاد؛ اجتماعية سياسية نفسية، وقد يكون كلّ ذلك قريبا مما طرحه جيرار جونيت Gérard Genette في حديثه عن "مبدإ "جون بيار ريشار" Jean Pierre Richard الذي يبحث في المعنى والالتحام المتحققين داخل الأحلام الأساسيّة، والمأثور من العناصر والموادّ، من حالات معيّنة في العالم الخارجي في مستوى منطقة الوعي العميقة هذه، لكن المنفتحة على الأشياء التي سمّاها "باشلار" Bachelard Gaston ([16]) التخييل الماديّ"([17]) وهذا ما هو متحقق في هذه الرواية التي تمزج مجموعة من الموضوعات السياسية والسيراتية"سيرة الكاتب الذاتية" والسيرية "سيرة الرئيس أحمد بن بلة"، أمّا التخييل الماديّ فمتحقّق في العطر والرائحة، واستعمال الشمّ مع مجموعة من الحواسّ الأخرى.

ومن الطبيعيّ جدّا أن تلتفت الرواية إلى التاريخ من خلال سيرة "بن بلة" إذ التفاوت بين الأمم بحسب ما يرى سبنغلر spengler ([18]) هو في مدى إحساسها بالتاريخ؛ فهذا الإحساس هو الذي يمكن أيّ جماعة إنسانية من معايشة الماضي والمستقبل،([19]) وهذا الإحساس الدقيق بالتاريخ كذلك هو الذي يدفع إلى كتابة السيرة، فلا عجب في أن تكون السيرة جزءا من التاريخ. ([20])

ويطرح وجود التاريخ في الرواية ببعض تفاصيله الحقيقية أسئلة كثيرة حول علاقة الواقع الحقيقيّ بالعمل الأدبيّ الذي ينطلق أساسا من عالم حقيقي وحادثة حقيقية أو أكثر لكن شعريّة أيّ عمل تتطلّب إضافة قدر من السمات غير المعقولة والعناية بمجموعة من التفاصيل الصغيرة

التي قد لا ننتبه إليها وهي تجري أمامنا فإذا ما صادفناها في عمل أدبيّ ما وقفنا أمامها مندهشين.([21]) وهذا يعني أن مقدارا من الطاقة التخييليّة لا بدّ أن يتضمّنه العمل الأدبيّ.

4- الحواس بين التفاوت والتبادل:

كثيرا ما تتنافر الحواس في رواية أصابع لوليتا، فيكون لإحداها مساحة أوسع، ودور أكبر، ولا يمكن لحاسّة ما أن تقوم بدورها إلاّ إذا تعطّلت حاسّة أخرى أو تردّدت: " استنشق "يونس مارينا"رائحة العطر الهارب طويلا بعد أن أغمض عينيه.([22]) فحاسة الرؤية كان عليها أن تتوقف لتسمح لحاسّة الشمّ بأن تقوم بعملها مُركّزا؛ فيونس يستنشق الرائحة طويلا، لكن لم يتمّ له ذلك إلاّ بعد أن توقّفت حاسّة الرؤية "حين أغمض عينيه" فإذا كان تجاور الحاسّتين هنا قد أدى إلى نوع من الصراع، فإنّ هذا الأمر في الحقيقة يتم في السلوك العادي خاصة في لحظات نشدان التركيز.

وقد تتصارع حاسة ما مع اللغة في حدّ ذاتها، وبذلك يكون الصمت شرطا لتتمكن الشخصية من تنشيط حاستها: " تمتم وهو يحاول أن يتفرّس الوجوه ...([23]) فالتمتمة هنا مصاحبة لمحاولة التفرّس؛ أي النظر المركّز، لذلك يكمل الكاتب المشهد بقوله إنّ الشخصية قد أغمضت عينيها فصارت تسمع جيدا...([24])

ومن الواضح أنّه في كل مرّة تتجاور فيها حاستان أو أكثر، تكون الصدارة لحاسّة الشمّ، لتظل سيدة الموقف، راسمة المسار، في حين أن حاسة الرؤية مثلا تبقى مترددة تفتح ثم تغلق، لتستمرّ حاسّة الشم وقد اطمأن الراوي أكثر لجدواها، وقد تكون الصدارة لحاسّة أخرى غير الشم وهذا قليل:"هذا العطر ليس غريبا على حواسي..."أغمض عينيه فصار يسمع جيدا ...([25])

ويبدو اعتماد الحواس عامة والشم بخاصة منذ بداية الرواية، وسيلة للتقدّم في مجرى الأحداث؛ ففي الصفحة الأولى ومنذ العنوان كما هو واضح تحضر بكثافة، وتحلّ محلّ الرؤية بمعناها الواسع، فها هي ذي الجموع تتراءى للراوي في الصفحة الأولى، فيقول بأنها تستعمل شمّ روائح بعضها علّها تعرف شيئا، كما يلحّ على فتح هذه الحاسّة إلى أقصى حدّ مثلما يتجلّى ذلك في قوله:" فتح حاسة شمه عن آخرها مرة أخرى ...([26]) وبذلك تكون الحواسّ المعبّر عنها في كلمات صريحة واضحة وسيلة إلى المعرفة، وحتى في لحظات التصوير الشاعري تحضر هذه الحاسة كما نجد ذلك في: الرواية التي بدت لها معطّرة برائحة الورود ... [(27)] ، ليغدو العمل الأدبي نفسه

ذا رائحة تمكّن القارئ من الإحساس به، ودون هذا العطر يتعطّل كلّ اتّصال، وفي ذلك إشارة نقدية لطيفة إلى شرط أصالة أي عمل.

ويبدو هذا التردّد الذي ينتهي في الأخير إلى تفضيل حاسة الشمّ، مرتبطا أحيانا بالطبيعة، لكن الكاتب يهمل اشياء الطبيعة، ويركز على الرائحة المنبعثة من الإنسان "...أغمض قليلا عينيه ثم فتحهما ..." [28] ويتمّ حمل باقة بنفسج فتختلط رائحتها بعطرها، لكن تهمل الباقة ويظل عطر الشخصية، وبذلك تكون الصدارة لرائحة الإنسان وعطره، وليس لرائحة الطبيعة. فلماذا لا تندمج الشخصية في عطر الطبيعة، وتفضل أن تنكمش على حالها ؟

5- حاسة الشمّ وبدائية إحساس الشخصية:

الشم من أهم وسائل كثير من الحيوان في التعرّف على الأشياء واستشراف الخطر خاصة لغايات حيوية (بيولوجية). وتثبت الدراسات أنّ حاسة الشم أكثر تطورا عند الحيوان، بل وتثبت أنّ الإنسان قد فقد بسبب منتجات تطوّره العلمي كثيرا من قوّة حاسة الشم كما فقد حدة النظر بعد أن أصبحت الحاجة إلى الصيد أقلّ في حياته، مقابل تطوّر جوانب أخرى([29])، غير أنّ تطوّر هذه الحاسة في شخصيّة الراوي هو ما يمكن ملاحظته في الرواية، وفي سلوك الشخصية وشعورها، فهذه الوسيلة "حاسّة الشمّ" تستمرّ -وبشكل يبدو قصديّا - أداة للتعرف على الأشخاص والأشياء دون انقطاع: "واصل توقيعاته متصيدا موقع العطر..."[30]

والعناية بالرائحة في الرواية مناقضة لما كان عليه القدماء الذين عدوها علامة بدائية وفظاظة وحيوانية وجنس، ووسيلة لدى الحيوانات للحفاظ على بقائها ونموها، لكن القس إيتيان بونو Etienne Bonnot غير الفكرة في منتصف القرن الثامن عشر حين ربط بين الحواس والمعرفة.([31])

والتصيّد يحيلنا هنا إلى المعنى البدائي، بل الوحشيّ الذي يعرف عند الحيوان الأليف والمفترس كليهما: "حواسنا التي نملك ماتت منذ زمن بعيد، وحلّت محلّها حواسّ أخرى شبيهة بحواسّ بعض الحيوانات التي لا سلطان لها على غرائزها، أغلبها من فولاذ لا يحركها شيء. تبادلنا الدوران حولها تشمّمناها وهي تصغر وتضمر حتى شعرنا بها تنتفي، وتتحوّل إلى شيء، وتنسى أنها كانت أمّ رئيس البلاد نهائيا..." ([32])

وقد تجد الشخصية نفسها مرغمة على أن تلتحم بالإحساس البسيط، حين تعجز عن إيجاد الحلّ في موقف يتجاوز إمكانياتها، كما يبدو ذلك في الموقف الذي يعيشه (أحمد بن بله) داخل السجن، وقد انشغل في عالمه الضيق بمخلوقين اثنين: الفراشة والذبابة، وها هو هنا يتحدث عن الفراشة في حسرة:"حتى عندما يقترب منها لا يسمع إلا رفرفات أجنحتها قبل أن تستكين. عمرها كان أقصر من عمر الذبابة، سرعان ما احترقت بسرعة، والتصقت بحرارة زجاج اللمبة التي كان السجّانون يُشعلونها ويُطفئونها وقت ما يشاؤون. يوم احتراقها شمّ رائحة جسدها الهشّ الذي تطاير منه الكثير من الغبار الأبيض بسبب ضرب أجنحتها في كل الاتجاهات قبل أن تستقرّ. لم يكن الرايس بابانا قادرا على إنقاذها، لأنّ اللمبة كانت عالية وملتصقة بالسقف".([33])

وأمام غياب المشروع العقلانيّ المنطقيّ الموضوعيّ، تتمسّك شخصية الراوي بالحاسّة لكن هذه المرة مع "الذوق"، في إشارة إلى محاولة فهم أسرار القرآن الكريم، وفي ضرب من التماهي مع شخصية "سلْمان رُشدي" بمحاولة اختراق سريّة القرآن اللذيذة:"لم يرَ في عرش الشيطان أيّ استثناء، ولا أيّ جهد خارق يضعه في أفق الدهشة، مجرّد لحظة هاربة لاختراق سريّة القرآن اللذيذة، نص يحبّه الملايين ويخافه الملايين أيضا..." ([34]) فالحاسة هنا موقف من حدث أدبيّ وأديب واجهه العالم الإسلامي باستنكار وصل حد إهدار دمه.

وتتعرّف شخصية الراوي على مدى نجاحها بالصدفة، ولم تهتم بالاهتداء إلى الأسباب الموضوعيّة التي حققت مجدها الأدبيّ، واثقة في نهاية المطاف برائحة العرق في أجساد القراء دليلا على بلوغ القمة؛ وتنتشي بمشهد الزحام الذي يجعل المعجبين يعانون: "ونمضي في الحياة، لكننا نفاجأ بالأيادي تمتد نحو الكتاب والألسن تسأل عنه، والأجساد تتحمّل طوابير البشر الواقفين، وروائح العرق والعطور المتفسخة من شدة الاحتكاك فقط للحصول على نسخة منه..."([35])

6- حاسة الشم والعودة إلى بدائية الإدراك:

يبدو فعل الكتابة في الرواية مقاومة ضدّ تحوّل الإنسان من "طاقة العقل" إلى حاسّة شمّ الفعل وردّ الفعل؛ كما يحدث في علاقات قطعان الوحوش التي تعيش حالة عدوان وخوف باستمرار، وما يبرّر هيمنة الشمّ هو الانفراد والانفصال الكلّي عن الحياة الاجتماعية؛ وهو الوضع الذي عاشته شخصية "بن بلة" في زنزانتها. ويتمّ إسقاط هذا الشعور على شخصيات الرواية التي يصبح الشمّ سبيلها إلى كل إدراك:" فجأة شمّ من جديد العطر المدوخ نفسَه ... حاسة الشم

جعلتها سنوات الخوف حادة جدا ... [36] . ألا يذكرّنا هذا بتلك الصور المألوفة عن حيوانات تستشعر الخطر بحاسة شمها ؟ : " أثاره العطر نفسه الذي كان يأتي من مكان ما ... رفع رأسه كالذئب وهو يتحسّس المصدر الذي لم يكن بعيدا ...استنفر كلّ حواسه ..." ([37])

وهكذا تهيمن حاسة الشمّ على باقي الحواس، وتوقظها وتثيرها بعد أن انحسرت الحواس الإنسانية الأخرى، وهوما يبرر موقف الكاتب المندد بالانقلاب على ابن بلة، ولم يكن ذكر الذئب جزافيا إنه إشارة إلى ما يصيب الإنسان من مسخ لا يقوى لا على إدراكه ولا على مقاومته.

إن هذا العرض الذي اهتم بالسجن والتعذيب يذكرنا بالمثل الشعبي القائل: "يسمعها الشيطان فيصم أذنيه" وهو مثل يلخص فظاعة التعذيب التي يكشف عنها أدب السجون في كتاباتنا العربية المعاصرة التي تفضح ضروب الإهانة والتعذيبين الجسديّ والنفسيّ.([38])

7- حاسة الشم والعجز المفروض:

في الرواية ذكر للامتصاص المرتبط باللذة الفمية، وهو ما يعني من الجانب النفسي الانطواء والعجز: "أخذ أصابع يديها ثم مصّها واحدا واحدا "([39])، وقد يفسّر هذا السلوك الطفولي معاناة لوليتا لفقدان الأبوة بسبب الاغتصاب، ومن هنا فإنّ انجذاب الراوي إليها تعبير عن وحدة المعاناة، وإذا كانت لوليتا قد عانت اغتصابا حقيقيا ضحية للأب، فإن الراوي يشعر بذلك الاغتصاب السياسي الذي رأى بأنّ الجزائر قد شهدته عام 1965. ومما يبرز هشاشة شخصية الراوي أنه يستمسك بأي شيء ليحسّ بقليل من الطمأنينة بعيدا عن كلّ منطق أو موضوعية: " منحه عطرها الهادئ الذي تسرّب إلى أنفه نوعا من الراحة...([40]) ، وتتضح هذه الهشاشة في قول الراوي: عطرك هذا سيسرق مني عذريتي...([41]) ، فهشاشته تبلغ أقصاها حين يتم إسقاط العذرية من الأنوثة إلى الذكورة تعبيرا عن الاغتصاب السياسي الذي حدث عام 1965.

وقد تصطبغ الشخصية كل مرة بالصفة الحيوانية في التشبيه الذي يجمع نقيضين هما الغضب والخوف مثلا: " التفت نحوه، وهو يتحسّس رائحته التي تشبه رائحة الذئاب والدجاح...([42])

وقد يدلّ تشبيه واحد على أكثر من حالة نفسية لدى (لوليتا) التي تسمع صوتا فتلتفت اليه كأنها قطة... "([43]) ليجسّد ضعفها وخوفها وغضبها، واستعدادها للفتك بمغتصبها. ويمضي

في اكتشاف هذه الأبعاد الحيوانية التي تتّسم بها لوليتا فيقول بأنه أدرك ذلك من عينيها " بحواس امرأة تشم الخطر من بعيد " ...([44])

وأمام هذا المسخ الذي يصيب الشخصية تعجز عن أيّ إدراك في غياب الرائحة التي تكون دائما عماده في كل بحث عن الحقيقة: " مرة أخرى أعاده العطر الهارب الى حضوره ليتأكد للمرة الثالثة من أنه لم يكن عطر إيفا ..." ([45])

وتعيش الشخصية في غياب الرائحة أو العطر حالة من الحيرة والضياع، والعجز التام عن معرفة أي شيء؛ كما نجد ذلك في هذه الجملة التي تعبر عن الارتباك الكلّيّ: "حتى عطرها انسحب نهائيا ..."([46])، ولا يتحرّر الراوي حتى وهو في درجة من السموّ التعبيريّ الشاعري من الرائحة والعطر وحاسة الشم فيذكر:" الكلمات والصور المعطّرة ..."([47])

وفي جوّ هذا الضعف الذي يتحدّث عنه فقد تعاملت الرواية مع شخصية أحمد بن بلة تعاملا خاصا في توظيف حاسة الشم داخل زنزانته؛ ذلك أن هذه الحاسة قد أوحت بغياب كلّ الحلول، وجسّدت الضعف التام، وساهمت في تصوير الجوّ المأساويّ الذي كان يلفّ الرئيس، حين لم يستطع حماية الفراشة التي كانت تؤنسه مع ذبابة: " فحزن كثيرا وقد شمّ رائحة احتراقها".([48])

ويعجز الرئيس عن حماية أمّه أيضا، لذلك تنشط حاسّة شمّه كما نجد ذلك في قول الكاتب:" أدرك بحاسته الحيوانية أنّهم سيأتون نحو أمه..."([49])، ويشتدّ هذا العجز أمام الحراس، وقد تحولوا إلى كائنات حيوانية: "حواسّ الحراس ماتت لهذا يُعرّون "لالة الزهراء"، وحلت محلها حواس حيوانية ..." ([50]) فهل كانت دلالة الحيوانية أو الوحشية شكلا من أشكال الإدانة للسلوك السياسي الذي وضع حدّا لرئاسة "أحمد بن بلة" على يد العقيد الهواري بومدين؟

خاتمة:

يمكن لهذه الرواية أن تقدّم لقرائها عددا من الدلالات الفكرية والفنية، وقد تكون عنايتها بالحواس ظاهرة لافتة، ولعل حاسة الشم أبرزها حضورا وتوظيفا، خاصة وأنّها قد حمّلتها كثيرا من المعاني النفسية، والاجتماعية والسياسية، ويمكن حصر أهم نتائج هذه الدراسة في النقط التالية:

- تبدو رواية أصابع لوليتا لواسيني الأعرج توجّها لافتا في مسيرته السردية: ذلك أن القارئ لم ير من التركيز على الجوانب الحسية والحواس ما يمكن أن يراه في هذه الرواية، فإن تكثيف "تحسيس الرؤية" باعتماد مجموعة من الحواس عامة وحاسة الشم خاصة كانت

الوسيلة المفضلة في البحث عن الأشياء وفهمها وتذكرها، بل وتذكر الإنسان أيضا، وتعمّق دواخله، وما تضمنه كل ذلك من كشف عن الوجه الممسوخ بصورة عامة الذي صارت عليه الأوضاع السياسية بسبب أحداث 1965 الانقلابية.

- تركز الرواية أيضا على مسخ الإنسان داخل السجن(السجّان والسجين)؛ فيصبح آلة أو وحشا، ثم تتسرّب هذه الحالة إلى الراوي الذي يستشعر تحوله، ويقتنع به؛ فيغدو معتمدا حاسة شمّه في إدراك ما يريد إدراكه، ثم يجد نفسه كذلك يهتدي بهذه الحالة إلى معرفة إنسان مقهور يشبهه هو " لوليتا " مستشعرا من ذاتها ذاته، حين يرى فيها كثيرا من الانكسار والغبن لما تعرضت له من وحشية على يد أقرب الناس إليها.
- تغدو الأبوة في الرواية رمزا للقهر العائلي والسياسيّ، بدلا من أن تكون تجسيدا للرحمة واللطف وتحمّل المسؤولية، ومن هنا أيضا يبدو مفهوم الأبوّة – ربما – هو الطرح الجوهريّ الذي كان أكثر تأثيرا في الرواية، وإن لم يتمَّ التركيز عليه لتتضح أكثر وتتسع ثنائية القاهرِيْن: الأبويّ والسياسيّ من خلال مأساتين يعايشها كل من الراوي ولوليتا، وقد أنجزت الرواية كل ذلك من خلال حاسّة الشّم بشكل واضح.
- غيبت رواية "أصابع لوليتا" بطلها السلبي، بالرغم من أنها قد استحضرت صورة لوليتا نابوكوف، وبذلك يكون واسيني قد أنطق الضحية التي أنطق نابوكوف جلاّدها، وهوما ينسجم مع إعلان الراوي صراحة وبصورة تهكمية ضرورة الاختلاف مع العقيد محاولة منه خلخلة المقدس السياسي .
- تبقى الاسئلة متواصلة بعد قراءة أصابع لوليتا: هل كانت محاورة لوليتا الروسية في صالح أصابع لوليتا؟ وهل استطاعت لوليتا الرواية النفسية التربوية الجنسية أن تتجرد من تلك الأبعاد في الأصابع أو تغير وجهتها حين ركّزت على توظيف الحواس عامة، والشم خاصة، لتفضح واقعا سياسيا معاصرا في تاريخ الجزائر، صار لزاما أن نحاوره فنيا؛ إشراكا للذائقة الأدبية في تصور المسار الجزائري العام، ومحاولة استشراف آفاقه.

الهوامش :

([1])- واسيني الأعرج، أصابع لوليتا، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع مجلة دُبي الثقافية، مارس 2012

([2])- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر ، القاهرة، ط1، 1987م، ص8

([3])- Emile Zola, Nana, Pocket, 2006, Paris cedex 13 ونقرأ في ص 18 من الرواية: آل روغون ماكارت Rougon Macquart قصة طبيعية واجتماعية لأسرة خلال الامبراطورية الثانية. – وينظر: حلمي مرزوق: الرومانتيكية والواقعية في الأدب: الأصول الإيديولوجية، دار النهضة العربية بيروت، 1983، ص ص65-66، حيث يشير الكاتب إلى سخط مجموعة من الكتاب ومهاجمة ما ورد من صور خليعة في سلسلة رواياته عن هذه الأسرة.

([4])- Gianfranco Stroppini Madame Bovary ou L'idealisme de Flaubert, bulletin de l'association Guillaume Budé, Annee 1992, 2, pp174-180, p174

ويشير حلمي مرزوق في "الرومانتيكية والواقعية في الأدب" إلى أنّ هذه الرواية قد تميّزت بطابع التوثيق، وهي وفقا لرأي بليخانوف – أساس لكلّ دراسة في علم النفس الاجتماعيّ.

([5])- ينظر: فلاديمير نابوكوف، لوليتا، ترجمة خليل حنا تادرس، دار الجيل بيروت 2006، ص5

([6])- مارتن هيدغر، أصل العمل الفنيّ، ترجمة: بو العيد دودو، الجزائر، منشورات الاختلاف، ط1، 2001، ص97.

([7]) LE DIALOGISME DANS LE ROMAN ALGÉRIEN, DE LANGUE FRANÇAISE, Thèse de Doctorat Nouveau Régime, présentée par Vladimir SILINE, sous la direction du Professeur Charles Bonn, Université Paris 13, Formation doctorale « Etudes littéraires, francophones et comparées » , 1999, p13

([8])- المرجع نفسه، ص15

([9])- حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990،ص26

([10]) كاتب ألماني ولد عام 1949 واشتهر بروايته "العطر" 1985، و"الحمامة" 1990 ينظر: Dictionnaire hachette, edition 2012,p1558

([11]) -Marc CERISUELO, « LOLITA, livre de Vladimi Nabokov », Encyclopædia Universalis [en ligne], consulté le 18 septembre 2014. URL : http://www.universalis.fr/encyclopedie/lolita/

([12]) تمهيد أصابع لوليتا، ص9

([13]) نفسه، ص52

([14])نفسه، ص21، 22

([15])- جاء في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة لسعيد علوش، ط1، 1405، 1985، دار الكتاب اللبناني، سوشبرس الدار البيضاء، ص152 أن العقدة" تدل في سيميولوجية القصة على مجموع الحوافز المفترضة لثوابت وضعية أولية من منظور "توماشفسكي" وتشير العقدة في الدلالة إلى الشيء الثابت.

([16])غاستون باشلار Gaston Bachelard فيلسوف فرنسيّ 1884-1962 درس العلوم والفلسفة ثم درّس في كلية الآداب بـ"ديجون" Dijon ثم في السوربون وعرف بتحليله لشروط المعرفة العلمية مؤكدا أن تطورها لا يتم إلا بالانتصار على الحواجز الابستيمية (تصور فوري، رأي، نتائج بثقة تامة في أنها حقائق نهائية) مع تركيزه على تأسيس تحليل نفسي للتفكير... من أعماله: العقل العلمي الجديد 1934، تكوين الروح العلمية 1938، العقلانية التطبيقية 1948، المادية العقلانية 1953، التحليل النفسي للنار 1937، الماء والأحلام 1941، الأرض وأحلام الإرادة، الأرض وأحلام الراحة 1948، سيميائية الحيز، 1957، سيميائية حلم اليقظة... Voir, Petit Robert 2, rédaction gérée par Alain Rey, Paris 75013, 1993, p 155

([17]) -Gérard Genette, Figures 1, collection tel quel, éditions Seuil, Paris 6,1966, p91-

([18]) Oswald Spengler فيلسوف ألماني 1880-1936، أهم منظر للتاريخانية historicity واضعا عليها بصمة سوداوية بتصوره للدورات التاريخية مبرزا خضوع كلّ ثقافة لكلية عضوية وقاده تصوره إلى القول بانهيار الحضارة الغربية.

ينظر:Petit Robert 2, dictionnaire des noms propres, p1697

([19]) إحسان عباس، فن السيرة، دار الثقافة بيروت، ودار الشرق عمّان، ط1، 1996، ص9

([20]) محمد الصالح الشطي، فنّ التحرير العربيّ: ضوابطه وأنماطه، دار الأندلس، السعودية، ط5، 1422هـ2001م، ص216

([21]) آمنة بلعلى، المتخيَّل في الرواية الجزائرية، دار الأمل تيزي وزو، ط1، 2006، ص18

([22]) أصابع لوليتا، ص60

([23])نفسه، ص60

([24]) نفسه، ص60

([25]) نفسه، ص60

([26]) نفسه، ص14

([27]) نفسه، ص15

([28]) نفسه، ص32

([29]) - Marie-Claude Vettraino-Soulard, la communication olfactive, Communication et langage. N°92, 2ème trimestre 1992, P103

([30]) أصابع لوليتا، ص15

([31]) Patrice Tran Ba Huy, Odorat et histoire sociale [article] Communication et Langages , Année 2000, pp 85-107

([32]) نفسه، ص ص100، 101

([33]) نفسه، ص97

([34]) نفسه، ص17

([35]) نفسه، ص21

([36]) نفسه، ص22

([37]) نفسه، ص31

([38]) شعبان يوسف، أدب السجون في الأدب العربيّ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014، ص24

([39]) أصابع لوليتا، ص71

([40]) نفسه، ص15

([41]) نفسه، ص16

([42]) نفسه، ص106

([43]) نفسه، ص33

([44]) نفسه، ص58

([45]) نفسه، ص24

([46]) نفسه، ص48

([47]) نفسه، ص50

([48]) نفسه، ص97

([49]) نفسه، ص109

([50]) نفسه، ص101